الخطوط الكبرى
للنهضة الإسلامية

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

يمر العالم الاسلامى اليوم بمرحلة بالغة الأهمية فى تاريخ الاسلام ، وصلته بالمجتمع وحضارته : فالأمم الاسلامية - من ناحية - قد نما وعيها القومى ، فشعرت بوجودها واعتزت بتراثها ، أخذت تجاهد ، لا لتتبوأ مكانها بين الأمم فحسب ، ولكن لتقوم بنصيبها كذلك فى تقدم الحضارة الانسانية عامة ، وإقرار مبادىء الاخاء والعدالة بين جميع الشعوب ، والعالم الغربى - من ناحية أخرى - قد أخذ يعنى بتتبع النهضات الفكرية فى العالم الاسلامى ، ويرقب اتجاهات حركاتها ، ويدرس تأثير الثقافة الاسلامية فى تفكير المسلمين ، وفى تحديد موقفهم من الفلسفات السياسية والاجتماعية الحديثة .

هناك - إذن - فى المرحلة الحاضرة من تاريخ الانسانية تجاوب فى التفكير ، ورغبة متزايدة فى تعرف الآثار العملية لتعاليم الإسلام ، وإفادة من هذه التعاليم وتخفيف ما ترزح تحته من أطماع وشرور ونزعات مادية .

وسأدير حديثى حول الاتجاهات العلمية التى أخذ نشاط العالم الإسلامى اليوم يتبلور فيها ، مشيرا بصفة خاصة إلى مظاهر هذه الاتجاهات فى حياتنا . أن المراقب لليقظة القومية الحاضرة يدرك أنها تسير بخطى ثابتة مطردة نحو إقامة حياة جديدة فاضلة على أسس من الخطوط الكبرى التى رسمها النظام الاسلامى ، والتى تتمثل فى الإيمان بالله ، والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ، والحكم الصالح الذى يهدف إلى سعادة المحكومين والتعاون المثمر فى كل ما يعود على المجموع بالخير ، وتوفير حرية العقيدة والفكر والعمل لكل مواطن ، والأخذ بيد الضعيف والعاجز والمحروم ، والدفاع عن المقدسات الانسانية من دين ووطن وعرض وكرامة ، واستثمار ما خص الله به الإنسانية من إدراك ونطق فى زيادة المعرفة وكشف أسرار الوجود .

هذه الخطوط الكبرى واضحة وضوحا لا لبس فيه ، فى نصوص الاسلام قرآنه وحديثه ، وفى العمل الذى جرى عليه الرسول وخلفاؤه الراشدون ، وفى مراحل الأزدهار التى تولى فيها أمور المسلمين ولاة عدول ، والكتب والرسائل التى ألفها علماء ومصلحون ممن نفذوا بصفاء جوهرهم إلى أسرار الإسلام وأهداف تشريعه ، وفى الحضارات التى قامت على أساس هذه الخطوط كلها أو بعضها .

والنظام الذى ترسمه هذه الخطوط ليس مغرقا فى المثالية ، ولا بعيداً عن واقع الحياة ، ولامتجاهلا لطبائع النفوس ، ولكنه نظام يتخذ من الإيمان دعامة للاستقرار ومن العقيدة مصدرا للإطمئنان ، ومن المثل العالية مصابيح يهتدى بها السارون فى مجاهل المعيشة ، ويجعل من تفاوت الناس فى مواهبهم وقدراتهم وسيلة لترابطهم وتعاونهم ، ويقيم من الحكام والعلماء حملة لمشاعل العدالة والمعرفة ، ويشتق من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حافزا على التقدم وباعثا على طلب الكمال ، ويرجع الأديان السماوية كلها إلى منبع واحد ، ليقرب بذلك بين أهل الايمان بالله وليجمعهم على كلمة سواء .

وهذا النظام — كما هو ظاهر من خطوطه ومن تاريخه — لا يمكن فرضه على الناس فرضا ، ولا بناؤه على أسس القوة والجبروت ، ولا محاولة التمكين له من طريق العنف والتعصب ، ولكن الطريق الطبيعى لبنائه هو التربية والتثقيف ، والحكمة والموعظة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، وتعرف أدواء النفوس ، ومراعاة أحوال العمران ، ورسم سياسة بعيدة المدى لتحسين أحوال المسلمين ، ورفع مستواهم الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، ودعم وحدتهم ، وإعلاء كلمتهم فى المعترك الدولى .

هذه المبادىء التى نقررها هنا مشتقة من صميم التوجيهات الاسلامية وهى لهذا جديرة بالدرس والتأمل والأتباع ، ويمكن أن نتخذ منها مقاييس للحكم على الخطوات التى خطتها أو ستخطوها الجمهورية العربية فى سبيل قيام الاسلام بدوره فى بناء المجتمع ونهضة الحضارة .

لقد وجهت الجمهورية العربية شطراً من عنايتها فى جهودها التحريرية إلى السمو بكرامة المواطنين جميعاً ، وتقريب المسافات بين غنيهم وفقيرهم ، حتى يكون الجميع سواء فى حق الحياة ، وحتى تتوثق الرابطة بينهم ، فلا يتزاق الغنى بثرائه إلى السيطرة والتجبر ، ولا يندفع الفقير بحرمانه إلى النقمة والكراهية . ومن المعلوم أن هذه نقطة أساسية فى برنامج الاسلام فقد حض على البذل ، ووضع الثروة فى مكانها من عدد

الحياة وحذر من كنز الأموال . وسن للأغنياء غير سبيل إلى الايثار والاعطاء ، وأبعد عن الفقراء شعور الحرمان ومرارة العوز ، وجهد الخلفاء فى تعهد هذه الناحية فى الرعية ، حتى لقد قال أحدهما : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » .

هذه الروح أصيلة فى النظام الاسلامى ، وإن كان المسلمون قد أهملوها أو جهلوها فى مراحل من تاريخهم ، ومن الحكمة إبرازها فى منهج الاحياء الاسلامى ، فى هذا العصر الذى اضطربت قيمه ، وتعقدت أموره وكثرت مثيرات النزاع فيه . وإذا فهمت فلسفة الاسلام فى هذه الناحية على حقيقتها أمكن أن يجد فيها المجتمع الحديث حلا لمشكلة من أعقد مشكلاته ، ومن الخير أن نشرح المبادىء الاسلامية فى هذا شرحا مستقلا ، غير متأثر بنزعة حديثة تنحرف به إلى هذه أو تلك من الفلسفات المتناظرة .

والمظهر الثانى الذى عنيت نهضة الجمهورية العربية برعايته والقيام عليه هو حث الأفراد والجماعات على العمل والنظام والمواظبة وعدم الاهمال فى الواجبات أو التباطؤ فى تنفيذها ، ولا سيما إذا كانت واجبات تتصل بالصالح المشترك وتؤثر فى سير الحياة العامة . وهذه ناحية مرعية الجانب فى المجتمع الغربى ، وقد أولاها الاسلام اهتماما فى فلسفته ونظامه : فحض على العمل ، والمزيد من الاتقان ، وحذر من التراخى والتواكل وإضاعة العمر فيما لا يفيد ، والقعود عن طلب الرزق ، وانتظار أن تمطر السماء ذهبا أو فضة . ومما له دلالته فى هذا أحد الادعية المأثورة التى يروى أن الرسول كان يكررها صباحا ومساء . وفيه يقول : « اللهم أنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

والمجتمع الاسلامى اليوم فى حاجة كبيرة إلى العناية بهذه الناحية ، فقد توالت عليه أزمان من الجهل والتأخر ، أورثته البطء فى الحركة ، والإهمال فى الواجبات ، والتراخى فى أداء المسئوليات ، وإضاعة الوقت فى الشواغل الفارغة ، والتسويف فى الأعمال حتى يتراكم بعضها على بعض . والسرعة التى تنفذ بها الآن بعض المشروعات الاصلاحية الكبرى فى مصر تعطى مثالا مما يمكن أن يكون عليه المجتمع إذا حرص كل فرد فيه على أن يعمل ويخلص فى العمل ، ويسهر على الثغر الذى يكلف رعايته ،

ويقوم بدوره فى وقته المحدد له ، كما يقوم أفراد الفريق الموسيقى بأدوارهم فى دقة وتجانس.

والظاهرة الثالثة فى نشاط النهضة العربية تخصيصها جزءا من برنامجها لتنسيق الجهود الاسلامية العامة من طريق التواصل الشخصى والزيارات المتبادلة بين القادة والرؤساء ، فى صورة عملية ، تحكم أواصر الود بين المسلمين ، وتهيء لهم فرص التشاور والتعاون المثمر فى كل عام ، وتجعل منهم قوة يخطب ودها ويعمل حسابها فى العلاقات الدولية .

هذه النماذج الثلاثة من النشاط مظاهر مدنية فى طابعها ، دينية فى روحها ومراميها تقوم على الفطرة السليمة ، والنظر الراجح ، والتطبيق المثمر لنتائج الاجتماع الحديث ، والترجمة الصحيحة لاسرار الشريعة السمحة . وهى جزء من البرامج الواسع الذى تحاول النهضة الاسلامية أن تسير عليه فى تحقيق الرسالة الحضارية للاسلام .